http://nj180degree.com

تراث الإنسانية

NYROUF

سراج الملوك

للطرطوشى

د. جمال الدين الشيال



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

http://nj180degree.com

سراج الملوك

للطرطوشي

NYROUF

د. جمال الدين الشيال

NYROUF

http://nj180degree.com



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

سراج الملوك للطرطوشى

د. جمال الدين الشيال

ولد أبو بكر الطرطوشى فى سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ هـ فى مدينة طرطوشة، وإليها ينسب، وطرطوشة - كما وصفها ياقوت الحموى - مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقوم على سفح جبل إلى الشرق من بلنسية وقرطبة، بينها وبين البحر عشرون ميلا، وهى مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية، وبها دار لصناعة السفن، ففى المدينة وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره من الخشب، ومنه تتخذ صوارى السفن.

فى هذه المدينة الأندلسية نشأ فقيهنا وعالمنا أبو بكر الطرطوشى، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعى الملهم

http://nj180degree.com

فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة وتغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة، وتطل من بعيد على البحر الأبيض المتوسط، بأمواجه الصاخبة حيناً، الهادئة المتهادية حيناً آخر، وفي مسجدها الكبير تلقى علومه الأولى، ولما شب عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى يستزيد من العلم، فذهب إلى مدينة سرقسطة، واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت القاضي أبي الوليد الباجي، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجاز له.

وأبو الوليد الباجي هو شيخ الأندلس وعالمها في ذلك الوقت دون منازع، وخاصة بعد وفاة ندة ومنافسة ابن حزم، فإليه كانت تشد الرحال، وإلى حلقته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومغاربها، ويبدو أن الطرطوشي بدأ يتتلمذ على الباجي وهو في سن العشرين أو نحوها، أي حوالي سنة ٤٧٠ هـ، لأن أبا الوليد الباجي توفى سنة ٤٧٤ هـ.

وشاق الطرطوشي بعد ذلك ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس، شاقته الرحلة إلى المشرق للحج ولطلب العلم، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه أبي الوليد

الباجي، فأراد أن ينهج نهجه، فقد رحل الباجي من قبل إلى المشرق، وحج ومكث في مكة ثلاث سنوات ثم زار مدن الشرق الكبرى: بغداد الموصل ودمشق، واتصل إلى وطنه بعد ثلاثة عشر عاماً، حصل في إبانها علماً كثيراً، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة فأثار في محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى.

فلم لا يحتذي التلميذ حذو أستاذه؟ فلعله يبلغ من المجد العلمي ما بلغ أستاذه ففي سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشي وطنه - وهو غض الشباب في الخامسة والعشرين من عمره - ليبدأ رحلته إلى الشرق.

ونحن لا نعرف شيئاً عن المرحلة الأولى من رحلته هذه، ولكننا نلقاه أول ما نلقاه في مكة، وقد استقر بها قليلا بعد أداء الفريضة، يلقى بعض الدروس فقد روى مواطن من مواطنيه، زامله في شبابه الأول، وتتلمذ معه في سرقسطة على أبي الوليد الباجي وأنه رآه في مكة، واستمع إلى بعض دروسه هناك.

ولم يمكث أبو بكر الطرطوشي في مكة طويلا، بل استأنف رحلته، واتجه إلى بغداد فقد كانت بغداد في ذلك الوقت مركزاً من أكبر مراكز العلم في العالم

http://nj180degree.com

الإسلامى، وكانت محط رحال العلماء، يفدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب، فكان لابد لأبى بكر الطرطوشى ـ وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج ـ أن يرحل إليها ليستكمل دراسته، ويتصل بعلمائها الأعلام، ويتتلمذ عليهم، ويأخذ عنهم.

وكان يلى أمور الشرق فى ذلك الوقت نظام الملك وزير الملكين السلجوقيين: ألب أرسلان وملك شاه، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء، ويقربهم إليه، ويغدق عليهم العطايا، وقد شهد الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التى اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة، وأشاد بذكرها فى كتابه «سراج الملوك».

وأخص ما يذكر به نظام الملك فى التاريخ أنه منشئ المدارس فى العالم الإسلامى، فقد كانت المساجد إلى عصره هى معاهد العلم، فيها تعقد حلقاته ودروسه، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم، يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون للتدريس، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها وعليهم، وأسماها المدارس، وحملت كل مدرسة منها اسمه، فكانت تسمى

«النظامية»، وكانت أكبرها وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التى بنيت قبيل وصول فقيهنا أبى بكر الطرطوشى إلى بغداد بسنوات قليلة وقد شهد الطرطوشى نظامية بغداد وهى فى أوج عظمتها، وتتلمذ بها، ووصفها وذكر قصة بنائها فى كتابه سالف الذكر «سراج الملوك».

وكان أول من عين للتدريس بنظامية بغداد أبو نصر عبدالسيد بن محمد بن الصباغ، ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية، من أمثال أبى إسحاق الشيرازى، وأبى سعد عبدالرحمن بن مأمون المتولى، وأبى بكر محمد بن أحمد الشاشى، وحجة الإسلام أبى حامد الغزالى.

ورغم أن أبا بكر الطرطوشى كان مالكى المذهب، فقد تتلمذ على معظم الفقهاء الشافعية وعلى بعض فقهاء الحنابلة وقد نصت المراجع التى ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين أخذ عنهم الطرطوشى فى بغداد، قال الحميرى فى كتاب «صفة جزيرة الأندلس»: «وسكن بغداد وتفقه على أبى بكر الشاشى، وسمع بها الحديث»، وقال ياقوت فى «معجم البلدان»: «ودخل

http://nj180degree.com

بغداد والبصرة، فتفقه على أبى بكر الشاشى، وأبى سعد بن المتولى ، وأبى حمد الجرجانى، أئمة الشافعية، ولقى القاضى أبا عبدالله الدامغانى، وسمع ببغداد من أبى محمد التميمى الحنبلى وغيرهم»

وزار الطرطوشى أثناء مقامه فى العراق مدينة البصرة وتتلمذ فيها على أبى على محمد بن أحمد التسترى، ثم يمم وجهه شطر قطر آخر وهو الشام.

دخل الطرطوشى الشام بعد أن أتم دراسته، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالسمة الظاهرة التى تميز أبا بكر الطرطوشى منذ دخل الشام إلى آخر حياته أنه عالم زاهد، بل لعله أقرب إلى الحقيقة أن نقول زاهد عالم، فإن ابن فرحون يروى فى كتابه «الديباج المذهب» أن بعض الجلة من العلماء كان يقول: «الذى عند أبى الطرطوشى من العلم هو الذى عند الناس، والذى عنده مما ليس مثله عند غيره دينه»، وقال الحميرى: «وزهده أكثر من علمه».

والذى تجمع عليه المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى عاشها فى الشام يعلم الناس، فأقبلوا عليه وأحبوه وأفادوا منه، فعلا اسمه، وبعد صيته، وأنه عاش هناك متقشفاً عابداً زاهداً منقبضاً عن الناس.

ولسنا نعرف أى المدن الشامية زار الطرطوشى ـ غير بيت المقدس ـ ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها، وأنه طوف فى معظم مدن الشام الأخرى، وأنه ذهب فى تطوافه إلى أقصى الشمال فزار حلب، ثم انحدر منها إلى أنطاكية فهو يروى فى «سراج الملوك» حادثة حدثت له يفهم منها أنه زار أنطاكية.

ويفهم من روايته هذه أنه كان فى أنطاكية حوالى سنة ٤٩٠ هـ، فهو يقول عند ذكره لها «وهى إذ ذاك حرب للروم»، ولعله يقصد الصليبيين، فإن الحملة الصليبية الأولى وفدت إلى الشرق فى سنة ٤٩٠ هـ، ثم لم تلبث أن استولت على سواحل الشام كلها بما فيها أنطاكية، وأغلب الظن أن هذا الحادث الخطير هو الذى دفع الطرطوشى دفعاً إلى ترك الشام، وأنه غادرها منذ ذلك الحين واتجه إلى مصر، ونزل بالإسكندرية حيث اتخذها مقراً له.

http://nj180degree.com

ومما يقوى استنتاجا أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، والأفضل ولى الوزارة بعد وفاة أبيه فى سنة ٤٨٧ هـ. فإذا صح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل الشام حوالى ٤٨٠ وهو فى الثلاثين من عمره وغادرها حوالى سنة ٤٩٠ هـ وهو فى الأربعين من عمره.

ولم يلبث الطرطوشى فى الإسكندرية إلا قليلا حتى عرف واشتهر، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه، وتزوج بعد وصوله بقليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده فى أموالها، وتحسنت أحواله، ووهبته داراً من أملاكها، جعل سكنه معها فى الدور الأعلى، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقى فيها دروسه.

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشى فى الإسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة، وهناك لزيارة الوزير الأفضل شاهنشاه بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ذهب لا ليسأله منحة أو عطية، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره، بل لينصحه نصيحة

العلماء المخلصين وليعظه الموعظة الحسنة وليطلب إليه الرفق بالرعية، وإشاعة العدل بينهم وفتح أبواب قصره لكل شاك و متظلم، وقد أثبت الطرطوشى نص موعظته الجريئة هذه فى كتابه «سراج الملوك»

عاد الطرطوشى إلى الأسكندرية ليستأنف سيرته الأولى، وليفرغ للعلم والتعليم، وتكاثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هى أقرب شئ إلى طرق التربية الحديثة، فلم يقصر اجتماعاتهم على حلقات الدرس ثم ينفضون من حوله، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية، وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه، فأقبلوا عليه، وكثر عددهم حتى إذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب.

ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشى الوبال، فقد ضاق به قاضى الإسكندرية ابن حديد ضيقاً شديداً وخاصة أن الطرطوشى كانت له فتاوى كثيرة يعارض

http://nj180degree.com

بها بعض النظم والقواعد القائمة التى تأخذ بها الدولة، فهو مثلا قد أفتى وهو فى الإسكندرية بتحريم الجبن الذى يأتى به الروم إلى المدينة، وألف فى تحريمه رسالة صغيرة، وهو ينتقد كثيراً من العادات السائدة فى المجتمع والتى تنافى الدين الإسلامى وأصله ويؤلف فى نقده كتاباً أسماه «بدع الأمور ومحدثاتها».

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ورفعها إلى الوزير الفضل شاهنشاه، وبين له خطوره هذا الرجل على الإسكندرية وأهليها، والأفضل لا يريد أن يثور شئ من الشغب فى هذه المدينة، ولو أن هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم، وينتقد القاضى وأحكامه، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة، ويحرم الجبن الرومى وغيره من المأكولات التى تأتى من أوربا، فأنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة، وسينقص من هيبتها فى أعين الشعب، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية فتنتقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التى تؤخذ على هذه التجارة الواردة؛ لهذا أراد الأفضل أن يحسم الشر قبل وقوعه، فأرسل إلى والى المدينة يأمره بارسال الطرطوشى إليه.

وجاء الرسول إلى الطرطوشى وأراد أن يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر فقال له: «يسر حوائجك فإنك تمشى يوم كذا».

فقال الطرطوشى: «وأى حوائج معى؟ ريشى رياشى، وطعامى فى حوصلتى».

وفى القاهرة قابل الأفضل الطرطوشى مقابلة طيبة ولكنه مره بالبقاء فى الفسطاط، وحدد إقامته فى مسجد الرصد جنوبى الفسطاط، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه، وعين له راتباً شهرياً بضعة دنانير يخذها من متحصل جزية اليهود، وسمح لخادمة بالإقامة معه.

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهوراً فضجر من التضييق على حريته واشتد كرهه للأفضل، تقول المراجع: «وكان الشيخ يكره الأفضل فلما طال مقامه به - أى بالمعتقل - ضجر وقال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجمع لى المباح من الأرض فجمع له، فأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: «رميته الساعة»، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل.

من الثابت أن الأفضل قتل فى اليوم السابق لعيد

http://nj180degree.com

الفطر من سنة ٥١٥ هـ، وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التى اعتقل فيها الطرطوشى، فهو قد اعتقل فى اواخر سنة ٥١٤ أو أوائل سنة ٥١٥ هـ، وظل فى الاعتقال إلى شوال من نفس السنة، وانكشفت الغمة عن الطرطوشى، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحى، وكان يعلم ما بين الرجلين، فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراماً زائداً وقربه إليه.

وعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى، ولكن هذه المحنة لم تفل من حدته، فقد كانت تشغله دائماً الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها، وقد خشى الطرطوشى أن تأخذ الوزير عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه.

لهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتاباً فى فن السياسة والحكم وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة وسماه «سراج الملوك»، وفى شوال سنة ٥١٦ حمل الكتاب وسافر إلى القاهرة ليقدمه إلى الوزير الجديد المأمون البطائحى، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة

القائمة فى الدولة والتى لا يقرها الشرع.

وبعد نحو شهرين من إقامته فى القاهرة أزمع العودة إلى الإسكندرية، فذهب إلى الوزير يشكره على حسن استقباله، ويودعه، وتقدم إليه فى هذه المقابلة بمطلب أخير، طلب الموافقة على إنشاء مسجد جديد بالإسكندرية بظاهر الثغر على البحر، فرحب الوزير بطلبه، وكتب فى الحال إلى قاضى الإسكندرية يأمره بالإشراف على بناء المسجد فى المكان الذى يتخيره الطرطوشى، وأن يبالغ فى إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة»، ويقول المقريزى: «وتوجه - أى الطرطوشى - فبنى المسجد المذكور على باب البحر»، وباب البحر كان قريباً من ميدان المنشية الحالى، وهذا المسجد للأسف من المساجد التى هدمت وتلاشت معالمها فلا وجود له الآن فى المدينة.

وقد توفى الطرطوشى فى التاسعة والستين من عمره فى ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠ هـ، ودفن فى مقبرة وعلة، وقد ظل قبره طوال القرون التالية حتى اليوم معلماً من أهم

http://nj180degree.com

المعالم التى تعين الباحث على دراسة طبوغرافية المدينة، فقد قال ابن خلكان إن مقبرة وعلة كانت قريبة من البرج الجديد قبلى الباب الأخضر والباب الأخضر كان أحد أبواب الأسكندرية القديمة الهامة، وكان يقع فى الناحية الغربية من أسوارها، وقد زار قبر الطرطوشى كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا الإسكندرية بعد ذلك، وكان آخر من نص على وجود القبر وزيارته له المقّرى صاحب كتاب نفح الطيب.

ذكرت المراجع المختلفة أن للطرطوشى تآليف كثيرة، وأغلب الظن أنه وضع معظم هذه المؤلفات أثناء مقامه فى الأسكندرية، فإن حياة الارتحال والطلب الأولى فى الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف، كما أن سن الأربعين التى بلغها عند نزوله بالإسكندرية هى سن النضـــوج الفكرى وهذه الحياة المستقرة نسبياً التى حياها فى الإسكندرية وخاصة بعد أن تزوج بها وانجب واطمأن إلى عيشة هادئة فى كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة، كل هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشى وضع الغالبية العظمى من مؤلفاته إبان الحقبة التى عاشها فى الإسكندرية، ومداها نحو الثلاثين عاماً، فهو قد

نزل بها حوالى سن الأربعين، وتوفى بها فى سنة ٥٢٠ هـ وهو فى سن السبعين.

ويبدو واضحاً من قائمة المؤلفات التى ذكرتها المراجع ونسبتها إلى الطرطوشى أن الرجل كان نشطاً منتجاً خصب الإنتاج، وقد أحصيت له اثنين وعشرين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة، نذكر أهمها فيما يلى:

- مختصر لتفسير الثعالبى.
- الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف - أو التعليقه فى الخلافيات -
- شرح لرسالة الشيخ ابن أبى زيد القيروانى - فى الفقه المالكى -.
- كتاب الأسرار.
- كتاب نقد إحياء علوم الدين للغزالى.
- رسالة فى تحريم جبن الروم.
- بدع الأمور ومحدثاتها.
- كتاب الفتن.
- كتاب بر الوالدين.

http://nj180degree.com

كتاب سراج الملوك

واهم كتب الطرطوشي وأقيمها جميعاً هو كتاب «سراج الملوك» وهو موضوع مقالنا هذا.

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشي ألف هذا الكتاب بعد إطلاق سراحه من المعتقل الذي حددت إقامته فيه في الفسطاط، وأنه ألفه في الإسكندرية خلال سنة كاملة، من شوال سنة ٥١٥ إلى شوال سنة ٥١٦، وأنه قدمه هدية إلى الوزير الذي أطلق سراحه المأمون البطائحي، وقال الطرطوشي في الإهداء مشيداً بذكر الوزير وعدله:

«ولما رأيت الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبا عبدالله حمد الآمري أدام الله لإعزاز الدين نصره وأنفذ في العالمين بالحق أمره وأوزع كافة الخلق شكره وكفاهم فيه محذوره وضره فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين، فبسط فيهم يده، ونشر في مصالح أحوالهم كلمته وعرف الخاص والعام يمنه وبركته وتقلد أمور الرعية، وسار فيهم على أحسن قضية، متحرياً للصواب، راغباً في الثواب طالباً سبل العدل، ومناهج

الإنصاف والفضل، رغبت أن أخصه بهذا الكتاب، رجاء لطف الله تعالى، «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً»، ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر، كما قيل:

الناس يهدون على قدرهم
لكنني أهدي على قدري

يهدون ما يفنى، وأهدي الذي
يبقى على الأيام والدهر

ثم يعلل الطرطوشي في إهدائه الكتاب إلى المأمون، ويلمح إلى موقف الأفضل منه ومن العلماء، ويدعو الوزير الجديد إلى أن يقف موقفاً آخر من العلماء فهم السياج الذي يمنع الحكام من الظلم ومن أن يسدروا في غيهم، فيقول:

«إن العلم عصمة الملوك والأمراء، ومعقل السلاطين والوزراء لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم

http://nj180degree.com

أن يعرفوا حقه، ويكرموا حملته، ويستبطنوا أهله».

والطرطوشى فى هذا الكتاب من الطلائع ومن رواد الفكر الإسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم، فالعلماء المسلمون الذين ألفوا فى هذا الفن قليلون، منهم: الغزالى فى كتابه «التبر المسبوك فى نصيحة الملوك»، والطرطوشى فى كتابه «سراج الملوك»، والشيزرى فى كتابه «المنهج المسلوك فى سياسة الملوك»، وابن طباطبا فى كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية»، وغيرهم جميعاً ابن خلدون فى مقدمته.

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى كتاب الطرطوشى «سراج الملوك»، واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران، ولكنه قال: إن الطرطوشى أحسن فى تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته غير أنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها و عرضها، أو هو - على حد قول ابن خلدون - «حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده؛ ولا استوفى مسائله».

والطرطوشى قسم كتابه «سراج الملوك» إلى أربعة

وستين فصلا جعل الفصل الأول فى مواعظ الملوك، والفصل الثانى فى مقامات العلماء الملوك عند الأمراء والسلاطين، ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره، وفصل آخر لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان، وفصل للوزراء، وعقد فصلا للحديث عن علاقة السلطان بالجند وبيت المال، وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال .. وما إلى هذا من موضوعات كثيرة تصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعية

ومنهج الطرطوشى فى تأليف هذا الكتاب أن يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان ملكاً أو وزيراً أو والياً أو قاضياً، وقد يشرح هذا المبدأ شرحاً يسيراً، ولكنه لا يطيل، بل يسرع بإيراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين، ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور.

فالطرطوشى فى كتابه هذا واحد من المفكرين الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق بل هو يراهما شيئاً

http://nj180degree.com

واحداً متفقاً، وهو ـ كما يقول(١) الأستاذ على أدهم ـ يشبه فى هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم، ويختلف اختلافاً كبيراً عن فلاسفة أوربا فى عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال هوبز، ولوك، وروسو، وهيجل، وماركس، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق، ويفكرون فى مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيراً مستقلا عن تفكيرهم الخلقى، وهو يشبه فى هذا أنداده من المفكرين الإسلاميين فهم جميعاً لم يفرقوا فى مؤلفاتهم بين السياسة والأخلاق.

وابن خلدون يعترف للطرطوشى بفضل الأسبقية عليه فى ارتياد هذا الموضوع ، ولكنه أراد فى نفس الوقت أن يتعالى عليه، وأن يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق فى مقدمته، فقال:

وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك، وبوّبة على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، وإنما

(١) راجع الفصل الخاص بالطرطوشى او المؤرخ السياسى من صفحة ١٠٣ إلى صفحة ١١١ فى كتاب «بعض مؤرخى الإسلام»

يبوب للمسألة، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً، وإنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده، ولا استوفى مسائله، ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاماً».

وإنصافاً للطرطوشى نقول: إن هدفه من تأليف(١) «سراج الملوك» لم يكن كهدف ابن خلدون من تأليف المقدمة هدفاً علمياً خالصاً، وإنما كان هدفه فنياً، يريد أن يؤثر فى النفوس بالقصة يرويها أو بالمثل والحكمة والموعظة الحسنة، يلمح ولا يصرح؛ حقيقة إن الطرطوشى لم يكن نداً لابن خلدون، ولكن من العدل ن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه فى تحقيق أهدافه التى كان يتطلع إليها عند وضع مؤلفه، والحقيقة أن سراج الملوك كتاب حافل بالقصص الممتعة والأخبار الطريفة، النوادر الشيقة كما ضمنه الطرطوشى كثيراً من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة، وآرائه القيمة، مما يدل على اطلاع واسع، ومعرفة شاملة لمسائل الفقه

(١) راجع صفحة ١٠٥ من كتاب «بعض مؤرخى الإسلام» للأستاذ على أدهم.

http://nj180degree.com

والشريعة والتاريخ والأدب.

ومن الفصول القيمة فى هذا الكتاب الفصل الذى عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا، فهو يقول فى أوله:

«ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة، كما أن خيره يعم، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لشرير لأن شره يعم، وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد، وتقترف المعاصى والآثام، وذلك أن السلطان إذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم وإذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد، فرقت أديانهم واضمحلت مروءاتهم ففشت فيهم المعاصى، وذهبت أماناتهم، فضعفت النفوس وقنطت القلوب، فمنعوا الحقوق، وتعاطوا الباطل، وبخسوا المكيال والميزان.... فرفعت منهم البركة، وأمسكت السماء غيثها ..».

ويروى الطرطوشى حادثة من مشاهداته بالإسكندرية لدلالة على أن السلطان إذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد، فرفعت البركة وقل الرزق،

يقول:

«وشهدت أنا بالإسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يغلى الماء به كثرة، ويصيده الأطفال بالخرق ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه إلا الواحدة إلى يومنا هذا»

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله:

«وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية ان خيراً، وان شراً فشر»

ومن كلماته القيمة فى وصف خطورة منصب السلطان والمهام الملقاة على عاتقه:

«الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم، والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف عدو، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته، وكلما رتق فتقاً من حواشى مملكته انفتق آخر، وكلما لم منها شاعثاً رث آخر».

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات للإشراف على شئون الرعية والزام كل فرد حقوقه وحدوده، والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله:

http://nj180degree.com

«جـبلت الخـلائق على حب الانتـصـاف وعـدم الإنصـاف.، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت فى البحر يزدرد الكبير الصغير، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر».

ومن عـجب أن الطرطوشى الذى نقـد فى رسـالة خاصة موسوعة الغزالى الضخمة «إحياء علوم الدين» قد تأثر به وحاكاة عندما أراد أن يؤلف كتابه «سراج الملوك»، فقد بدا لى أن أقارن بين كتاب الغزالى «الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك» وكتاب الطرطوشى «سراج الملوك»، فـتـبين لى أن منهج الرجلين واحد، فكلاهمـا يمزج تفكيره الأخلاقى بتفكيره السياسى مزجاً تاماً، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقى تقريراً موجزاً، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم ما يبرهن به على صـحـة هذا المبدأ، والغزالى أهدى كـتـابه لملك سلجوقى هو السلطان محمد بن ملك شاه، والطرطوشى أهدى كـتـابه لوزير فـاطمى كـان يتـمـتع بسلطان الملك المطلق هو المأمون البطائحى.

وقد يتردد الدارس الناقد طويلا قبل أن يحكم على بعض الفـقـرات المتشابهة فى الكتابين بأنهما من باب

توارد الخواطر.

وسنورد فيما يلى هنا مثالين يؤيدان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين فى بعض الأفكار وفى التعبير عنها:

يقول الغزالى عند حديثه عن مكانة العلماء وما يجب على الملوك الولاة من تقريبهم إليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم:

«أيها السلطان: خطر الولاية عظيم وخطبها جسيم، ولا يسلم الوالى إلا بمقـاربة علمـاء الدين يعلمـوه طرق العدل يسهلوا عليه خطر هذا الأمر».

ويقول الطرطوشى فى نفس المعنى:

«إن العلم عـصـمـة الملوك والأمـراء، ومـعـقل السـلاطين والوزراء لأنه يمنعـــهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته، ويستبطنوا أهله».

ويقـول الغزالى عند حديثه عن أثر السلطان العـادل أو السلطان الجائر فى الرعية وعمران البلدان:

«ينبغى أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك، فإذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا....

http://nj180degree.com

وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا».

ويقول الطرطوشى فى نفس المعنى:

«يس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم، كما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد».

ولكن من الإنصاف أن نذكر أن كتاب «الذهب المسبوك» للغزالى موجز فقد قسمه لى سبعة أبواب تناول فيها أمهات المسائل، أما كتاب «سراج الملوك» للطرطوشى فكتاب ضخم مفصل قسمه صاحبه إلى أربعة وستين باباً، وقد تناول فيه كثيراً من الموضوعات التى لم يعرض لها الغزالى فى كتابه، وحصيلة الطرطوشى فى سراج الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية أغنى وأوفر من حصيلة الغزالى فى كتابه «الذهب المسبوك».

نصوص مختارة من كتاب سراج الملوك

١ - نصيحة الطرطوشى للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه

«فلما دخلت على ملك مصر هو الأفضل بن أمير

الجيوش، فقلت: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلا، وأكرم أكراماً جزيلاً، وأمرنى بدخول مجلسه، وأمرنى بالجلوس فيه، فقلت:

أيها الملك: إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عالياً شامخاً وأنزلك منزلا شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك فى حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك وإن الله تعالى ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحد أطوع لله منك، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر، وليس الشكر باللسان، ولكنه بالفعال والإحسان، قال الله تعالى: «اعملوا آل داود شكراً» واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه إنما صار اليك بموت من كان قبلك، هو خارج من يدك مثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل قال الله تعالى: «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون»، وقال تعالى: «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين».

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا

http://nj180degree.com

بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» ، فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به، فقال: «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر».

فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، أعانك الله على ما قلدك، وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف.... الخ».

٢ ـ بناء المدرسة النظامية ببغداد

«ومن مناقب هذا الرجل وفضائله ـ يقصد نظام الملك أن رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفى، فقال له: يا خواجا أنا ابنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون فى معمور الأرض مثلها، يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة قال: افعل: وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال، فابتاع قطعة على شاطئ دجلة، وخط المدرسة النظامية، وبناها حسن بنيان، وكتب عليها

اسم نظام الملك، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها، وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وأوقفها عليها، فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسؤدد وذكر جميل طبق الأرض خبره، وعم المشارق أو المغارب أثره، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة».

٣ ـ حسن السياسة والرفق

«واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة، والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول، ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة، والنظر فى العواقب نجاة ومن يحلم ندم ومن صبر غنم، ومن سكت سلم ومن خاف حذر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن أطاع هواه ضل، ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة، زارع البر يحصد السرور، صاحب العقل مغبوط، إذا جهلت فاسأل، وإذا ذللت فارجع وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع، إذا أفضلت فاكتم، وإذا منعت فأجمل، وإذا أعطيت فجزل، وإذا غضبت فاحلم، من بدأك ببره فقد شغلك بشكره، المروءات كلها تبع للعقل، الرأى تبع للتجربة؛ العقل أصله التثبت وثمرته السلامة، والتوفيق أصله العقل وثمرته النجاح، والتوفيق

http://nj180degree.com

والنجاح زوجان فالجتهاد سبب والتوفيق ينُجح الاجتهاد، وقال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»، والأعمال كلها تبع للمقدور

واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب: من التوراة «من قنع شبع»، ومن الزبور «من سكت سلم»، ومن الإنجيل «من اعتزل نجا»، ومن القرآن: «ومن اعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم»

الحلم شرف والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله مأخوذ بعمله، اصطناع المعروف يكسب الحمد، أكرموا الجليس يعمر ناديكم، أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم، إياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضيع الشرف وتهدم المجد، واجمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات:

لا تحمل بطنك ما لا يطيق، ولا تعمل عملا لا ينفعك، ولا تغتر بإمره ولا تثق بمال وإن كثر».

٤ ـ طبقات الرجال

«اعلم أرشدك الله تعالى أن منزلة العمال من الوالى منزلة السلاح من المقاتل فاجتهد جهدك فى ابتغاء صالح العمال، إذا فقد الوالى عمال الصدق كان كفقد

المقاتل السلاح يوم الحرب، ويحتاج إلى طبقات الرجال كما تحتاج الحرب إلى أصناف العدة، فمنها الدرق للاستجنان، والسيف للمناجزة، والرمح للمطاعنة، والسهم للمباعدة، والدرع للتحصن، ولكل منها موضع ليس للآخر، والرجال للملك كالأداة للصانع، لا يسد بعضها مسد بعض، كذلك طبقات الرجال للملك، منهم للرأى والمشورة ومنهم لإرادة الحرب، ومنهم لمباشرة الحرب ومنهم لجمع الأموال، ومنهم لحفظها، ومنهم للحماية، ومنهم للكتابة، ومنهم للجمال والفخر، ومنهم للمباهاة والذكر، ومنهم للدعاء والوقار منهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة، فلا يكمل للملك ملك ما لم يجمع هذه الطبقات.

٥ ـ صفة ترتيب الجيش عند اللقاء فى الأندلس

«فأما صفة اللقاء، وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا، وهو أرجى تدبير نفعله فى لقاء عدونا: أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة، والرماح الطوال، المزاريق المسنونة النافذة، فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم، ورماحهم خلف ظهورهم فى الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم، وهم جاثمون فى الأرض وكل رجل منهم قد

http://nj180degree.com

القم الأرض ركبته اليسرى، وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة، فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيآتها، ولا يقوم رجل منهم على قدميه فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة، فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة، فتنال منهم ما شاء الله.

ولقد حدثنى من حضر مثل هذه الوقعة فى بلدى طرطوشة قال:

«صافقت الروم على هذا الترتيب، فحملوا علينا، فبينا رجل منا كان آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فأصاب غرته فقتله.

ولما برز المقتدر بالله بن هود ملك الأندلس من سرقسطة فى ثغور بلاد الأندلس للقاء الطاغية ردميل عظيم الروم، وكان كل واحد منهم قد احتشد بما فى ميسورة، فالتقى المسلمون والكفار ثم تنازلوا لقتال، وتصافقوا، ودام القتال بينهم صدراً كبيراً من النهار، وكان المسلمون فى خسران، فأفزع المقتدر ذلك وفرق

المسلمون من شر ذلك اليوم، فدعا المقتدر رجلا من المسلمين لم يكن فى الثغور أعرف منه بالحرب يسمى سعدارة، فقال له المقتدر: كيف ترى فى هذا اليوم؟ فقال سعدارة: هذا يوم أسود ولكن قد بقيت لى حيلة.

فذهب سعدارة - وزيه زى الروم وكلامه كلامهم لمحاورتهم وكثرة مخالطتهم - فانغمس فى عسكر الكفار ثم صعد إلى الطاغية ردميل فألقاه شاكاً فى السلاح مكفناً فى الحديد، لا يظهر منه إلا عيناه، فجعل يتخيله ويترصد غرته إلى أن أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه فى عينة فخر صريعاً لليدين والفم، ثم جعل (سعدارة) ينادى بلسان الروم: قتل السلطان يا معشر الروم، فشاع فى العسكر فتخاذلوا وولوا كمنهزمين وكان الفتح بإذن الله».

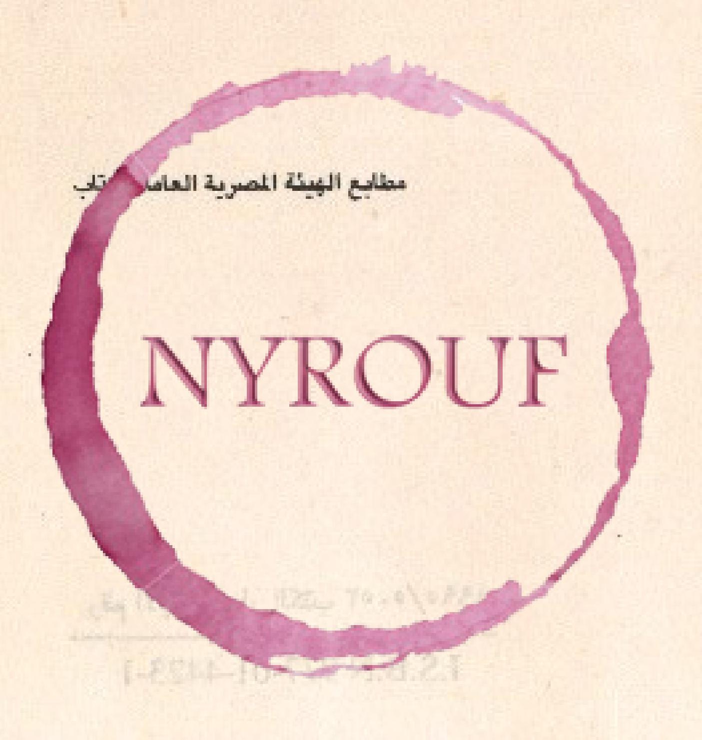
٦- مثال الوالى والرعية:

«واعلم أيها الوالى أن الملك بمنزلة رجل، فرأسه أنت، وقلبه وزيرك، ويداه أعوانك ورجلاه رعيتك، وروحه عدلك وما بقاء جسد بلا روح! وإذا أردت ذروة العدل فاعلم أن الرعية ثلاثة أنفس: كبير وصغير ووسط، فاجعل كبيرهم أباً ووسطهم أخاً، وصغيرهم ابناً، فبر أباك،

وأكرم أخاك وارحم ابنك، فإنك واصل بذلك إلى بر الله وكرامته ورحمته».

٧ ـ واجبات قائد الجيش

«وليخف قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حليته وألوان خيله ورايته، ولا يلزم خيمته ليلا ونهاراً، ليبدل زيه ويغير خيمته ويعمى مكانه، كي لا يلتمس عدو غرته، وإذا سكنت الحرب فلا يمشى في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه قد انكبت عليه، وعلى هذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت في وسط النهار، فخرج مقدم العدو يمشي خارج العسكر يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبدالله بن أبي السرح وهو نائم في قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح».



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب